# في صَحرَاءِ التِّيهِ وَالغُرْبَةِ

في صَحرَاءِ التِّيهِ وَالغُرْبَةِ: يَتَوَهَّجُ قُرْصُ الشَّمْسِ، تَتَمَايَلُ أَشِعَّتُهُ فَوْقَ رِمَالِ الصَّحرَاءِ كَآلَافِ الحَيَّاتِ الرَّقْطَاءِ، تَتَأَجَّجُ كَالنِّيرَانِ المُسْتَعِرَةِ .. تُلْهِبُ الأَقْدَامَ المُتَرَدِّدَةَ، تَحْرِقُ الوُجُوهَ الكَالِحَةَ .. يَأْخُذُ الأَجْسَادَ العَرَقُ يَكَادُ يَزْهِقُ الأَنْفَاسَ!

شَمْسٌ مُحْرِقَةٌ، وَرِمَالٌ مُلْتَهِبَةٌ، وَجَمَاجِمُ وَأَشْلَاءٌ مُبَعْثَرَةٌ؛ تَحُطُّ عَلَيْهَا الطُّيُورُ الجَارِحَةُ وَتَلْهُوا بِهَا ضَوَارِي الصَّحرَاءِ.

***

وَأَرَىٰ مَنْ يَبِيعُ مَسَاخِيطَ مِنَ الشَّمْعِ وَأُخْرَىٰ مِنَ الثَّلْجِ .. تَذُوبُ مَعَ حَرَارَةِ الشَّمْسِ!

وَشُخُوصٌ شَوْهَاءُ بَلْهَاءُ؛ مِنْهُمْ مَنْ هُوَ سَعِيدٌ بِالتِّيهِ لَا يَعْرِفُ أَنَّ هُنَاكَ حَيَاةً خَارِجَ هَذَا التِّيهِ!

وَمِنْهُمْ مُكَبَّلٌ بِأَثْقَالٍ مِنَ الرِّمَالِ فِي قَدَمَيْهِ، وَيَضَعُ فِي جُيُوبِهِ -وَيَا لَلْعَجَبِ- مِنْ رِمَالِ الصَّحرَاءِ!

وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْيَاهُ التِّرْحَالُ وَطُولُ الطَّرِيقِ .. فَجَلَسُوا يَنْتَظِرُونَ المَوْتَ!

وَمِنْهُمْ مَنْ يَجْرِي فِي حَلَقَةٍ مَعْصُوبَ العَيْنَيْنِ، يُمْسِكُ أَوَّلُهُمْ بِثِيَابِ آخِرِهِمْ؛ يَدُورُونَ كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِرَحَاهُ .. يَلْهَثُونَ وَلَا يَتَقَدَّمُونَ!

وَأَرَىٰ آخَرِينَ مِنْهُمْ يَسِيرُونَ بِغَيْرِ هُدًىٰ كَالأَنْعَامِ وَرَاءَ جَلَّادٍ يَلْبَسُ لِبْسَ رُعَاةِ البَقَرِ، يَمْتَطِي فَرَسَهُ، يَرْفَعُ عَقِيرَتَهُ بِالغِنَاءِ، يَضْرِبُ بِسَوطِهِ فِي الهَوَاءِ .. تَعْوِي السِّيَاطُ فِي الفَضَاءِ، تُلْهِبُ بِزَئِيرِهَا الأَجْسَادَ .. تُسْرِعُ الخُطُوَاتُ .. تَتَخَبَّطُ الأَقْدَامُ .. خَوْفٌ وَرَجَاءٌ يَحْدُو بِالأَنْعَامِ إِلَىٰ طَرِيقِ الهَلَاكِ!

***

يُلْبِسُ الجَلَّادُ أَحَدَ البُلَهَاءِ مِثْلَ لِبَاسِهِ، وَيُعْطِيهِ سَوْطًا كَسَوْطِهِ، وَلَكِنَّهُ مِثْلُ أَقْرَانِهِ مَعْصُوبَ العَيْنَيْنِ .. يَضْرِبُ بِسَوْطِهِ مِثْلَ سَيِّدِهِ، وَرُبَّمَا .. صَوْتُهُ أَعْلَىٰ وَسَوْطُهُ أَشَدُّ .. فَرِحٌ بِثَوْبِهِ وَسَوْطِهِ، نَشْوَانُ بِمَكَانَتِهِ المَزْعُومَةِ عِنْدَ سَيِّدِهِ، لَا يَشْعُرُ بِلَسَعَاتِ سَوْطِ الجَلَادِ عَلَىٰ ظَهْرِهِ!

***

يَبْتَسِمُ الجَلَّادُ بِدَهَاءٍ .. يُلْبِسُ أَحَدَهُمْ زِنَّارًا، وَيُقَلِّدُ آخَرَ جَرَسًا فِي عُنُقِهِ .. يُشْعِلُ نَارًا لِيَطُوفَ حَوْلَهَا الحَمْقَىٰ، وَتَتَهَاوَىٰ فِيهَا الهَوَامُّ!

يَعِدُ الجَلَّادُ العُمْيَانَ وَيُمَنِّيهِمْ بِبِحَارٍ مِنَ السَّمْنِ وَالعَسَلِ، يُعْطِيهِمْ قِرْبَةَ مَاءٍ، يَصْرُخُ فِيهِمْ: لَا يَشْرَبْ أَحَدُكُمْ مِنَ القِرْبَةِ إِلَّا نُقْطَةَ مَاءٍ؛ فَقَدِ اقْتَرَبَ الوُصُولُ إِلَىٰ دَرْبِ الحَيَاةِ حَيْثُ الحَيَاةُ .. أَسْكَرَتْهُمُ الكَلِمَاتُ، يَهْتِفُ أَحَدُهُمْ فِي البُوقِ

يَحِثُّهُمْ عَلَىٰ المَسِيرِ: جِدُّوا المَسِيرَ، فَمَنْ مِنْكُمْ مِثْلُهُ يَمْلِكُ سَيْفَ المُعِزِّ وَذَهَبَه؟

***

يُتَمْتِمُ أَحَدُ العِمْيَان فِي وَهَنٍ عَلَىٰ اسْتِحْيَاءٍ: أَعْرَفُ الدُّرُوبَ لَوْ تَرَكُونِي أُبْصِرُ، إِنَّهَا صَحْرَائِي وَصَحْرَاءُ أَجْدَادِي!

وَيَرْفَعُ آخَرُ صَوْتَهُ: أَخْبَرَنَا مَنْ نَجَا مِنْ هَذَا التِّيهِ؛ أَنَّ طَرِيقَ النَّجَاةِ يَسِيرُ بِلَا انْحِرَافٍ، خَطًّا مُسْتَقِيمًا .. أَمَّا نَحْنُ فَقَدْ أَنْهَكَتْنَا كَثْرَةُ الِانْحِرَافَاتِ وَالِالْتِوَاءَاتِ، وَشَاخَ مِنَّا مَنْ شَاخَ وَمَاتَ مِنَّا مَنْ مَاتَ، وَلَمْ نَضَعْ أَقْدَامَنَا بَعْدُ عَلَىٰ الطَّرِيقِ!

تَذَكَّرَ الجَلَّادُ وَصِيَّةَ جَدِّهِ لَهُ فِي مِثْلِ هَذَا المَوْقِفِ؛ فَقَالَ -بِغَطْرَسَةٍ وَاسْتِكْبَارٍ: أَنْتُمْ قَوْمٌ ضَالُّونَ، لَا تُبْصِرُونَ؛ فَلَمْ تُفَكِّرُونَ؟ وَكَيْفَ تَتَكَلَّمُونَ؟ فَإِنِّي .. ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[1]؟

***

يَسْتَعْطِفُ أَحَدُهُمُ الجَلَّادُ: أُرِيدُ إِزَارًا يُوَارِي سَوْأَتِي .. أُرِيدُ لُقْمَةً تُسْكِنُ جُوعَتِي .. أُرِيدُ شَرْبَةَ مَاءٍ تُطْفِئُ ظَمْأَتِي! ...

يَبْتَسِمُ الجَلَّادُ فِي خُبْثٍ وَيُعْطِيهِ وَرْدَةً؛ وَهُوَ يَقُولُ: هَاكُمْ وَرْدَة! .. مَنْ مِثْلُكَ

---

(١) انْظُرْ: سُورَةَ (غَافِر/ ٢٩).

يَتَجَمَّلُ بِالوَرْدَةِ؟!

يُصَفِّقُ بَعْضُ العِمْيَانَ وَيُهَلِّلُ .. يَسْـ ـتُ المُسْتَعْطِفُ!

وَلَكِنْ .. مَا تَصْنَعُ وَرْدَةٌ فِي صَحْرَاءٍ قَاحِلَةٍ بِلَا مَـاءٍ؟!

***

يَحْلُمُ أَحَدُ العِمْيَانَ -وَهُوَ يَسِيرُ- بِأَنْ تُصْدَمَ قَدَمُهُ بِـ(مِصْبَاحِ عَلَاءِ الدِّينِ) .. يَخْـرُجُ (مَارِدُهُ) مِنَ القُمْقُمِ لِيُنْقِذَهُ مِنَ هَذَا التِّيهِ!

يَضْحَكُ (مَارِدُ عَلَاءِ الدِّينِ): عَجَبًا! أَنْتَ تَحْتَاجُ إِلَيَّ؟ فَلِمَ لَا تُخْرِجُ مَارِدَكَ مِنْ بَيْنِ ضُلُوعِكَ، يُنْقِذْكَ؛ فَقَدْ طَالَ رُقَادُهُ؟ . . .

***

أَرَىٰ مَنْ يَحْمِلُ مِصْبَاحًا لَا يُجْدِي ضَوْءُهُ فِي ضَوْءِ الشَّمْسِ، وَلَا مَعَ مَعْصُوبِي العَيْنَيْنِ!

**يَا مَنْ يَحْمِلُ مِصْبَاحًا! ..**

أَنَا لَا أَبْحَثُ عَمَّنْ يَبِيـعُ الشَّمْعَ أَوْ يُوقِدُهُ فِي ضَوْءِ الشَّمْسِ!

نَعَمْ؛ نَحْتَاجُ إِلَىٰ مِصْبَاحِكَ فِي ظُلْمَةِ لَيْلٍ، وَلَكِنْ .. نَحْتَاجُ الآنَ مَنْ يَزْرَعُ شَجَرَةً فِي الصَّحْرَاءِ، أَوْ يُفَجِّرُ فِيهَا عَيْنَ مَاءٍ، أَوْ يَرْسُمُ بِالأَحْجَـارِ عَلَىٰ الأَرْضِ طَـرِيقَ خَلَاصٍ!

إِنِّي أَبْحَثُ عَمَّنْ يَحْمِيهِمْ مِنْ لَـهَبِ الشَّمْسِ، وَيَسِيرُ بِهِمْ فِي ضَوْءِ الشَّمْسِ.

أَبْحَثُ عَمَّنْ يَرْفَعُ أَجْرِبَةَ الرَّمْلِ عَنْ أَقْدَامِهِمُ المَكْدُودَةِ وَكَوَاهِلِهِمُ الضَّعِيفَةِ، وَيَرْفَعُ عَنْ أَعْيُنِهِمُ الخِرَقَ السَّوْدَاءَ، أَوْ يَأْخُذُ بِأَيْدِيهِمْ إِلَى طَرِيقِ النَّجَاةِ!

أَبْحَثُ عَمَّنْ يُحَطِّمُ الأَجْرَاسَ، وَيُطْفِئُ النِّيرَانَ، وَيُطْلِقُ الأَقْدَامَ، وَيُؤَذِّنُ بِالنَّجَاةِ!

تُرَىٰ: هَلْ يَخْرُجُونَ مِنْ صَحَرَاءِ التِّيهِ وَالغُرْبَةِ ؟

***

نَعَمْ .. يَومًا سَيَخْرُجُونَ.

فَفِي يَوْمٍ يَتَجَرَّأُ أَحَدُهُمْ وَيَنْزَعُ العِصَابَةَ السَّوْدَاءَ عَنْ عَيْنَيْهِ، وَيُبْصِرُ مَا حَوْلَهُ .. وَيَرَىٰ يَوْمًا الطَّرِيقَ!

يَوْمًا .. يَتَجَرَّأُ أَحَدُهُمْ؛ فَيَأْبَىٰ الضَّيْمَ وَلَا يَرْضَى بِحَيَاةِ الأَنْعَامِ، وَيُحَطِّمُ سَوْطَ الجَلَادِ!

يَوْمًا يَرْفَعُ أَحَدُهُمْ صَوْتَهُ بِشَجَنٍ يَحْدُو بِالقَوْمِ فِي طَرِيقِ النَّجَاةِ!

فَغَدًا .. لَابُدَّ أَنْ يُشْرِقَ يَوْمٌ جَدِيدٌ! ...

***

# مُسَافِرٌ بِلَا شُطْآن

مُسَافِرٌ مُنْهَكُ القُوىٰ .. سَقَطَتْ مِنْهُ السُّنُونُ في صَحَرَاءِ حَيَاتِهِ القَاحِلَةِ .. تَاهَتْ مَعَالِـمُهَا .. ٱبْتَلَعَتْهَا حَبَّاتُ الرِّمَالِ القَاتِلَةِ؛ كَمَا ٱبْتَلَعَتْ خُطُوَاتِهُ مِنْ قَبْلُ!

طَالَ تِرْحَالُهُ، وَهَنَ مِنْهُ العَظْمُ .. ٱنْحَنَىٰ ظَهْرُهُ وَاحْدَوْدَبَ .. ٱنْكَسَرَتْ عَصَاهُ ...

يَرْحَلُ في عَوَالِـمِ ذَاتِهِ المَنْسِيَّةِ مِنَ العَالَـمِ .. عَوَالِـمٌ بِلَا تَضَارِيسٍ، لَا يَجِدُ لَا اسْمًا، وَلَا يَرَاهَا في جُغْرَافِيَا الكُرَةِ الأَرْضِيَّةِ.

سَقَطَتْ مِنْهُ حُرُوفُ الذَّاكِرَةِ في البُحُورِ العَمِيقَةِ لِلَّاوَعِيِّ الأَسْوَد .. مَاتَتْ فِيهَا الجُذُورُ وَالفُرُوعُ .. رُبَّمَا بَقِيَتْ بَعْضُ حُرُوفٍ سَهْوًا؛ تَعَلَّقَتْ بِطَوْقِ نَجَاةٍ مُتَهَرِّأٍ .. عَلَقَتْ بِهِ زُهُورٌ زَابِلَةٌ!

***